



قبل انطلاق الثورة، تمنت نخبة من السوريين بمستوى معيشي مقبول وبرواتب مرتفعة، وتمكن هؤلاء من السياحة خارج بلد़هم، ووصل الأمر ببعضهم لدرجة "استيراد" خدمات من دول يتمتع مواطنوها بحقوق ديمقراطية عز مثيلها في سوريا "الأسد".

هذه النخبة تركّزت في المدن الكبّرى خاصة دمشق وحلب ومدن الساحل، ولا ننسى أن موسم الصيف كان موسم "الرُّزق" للكثيرين ممن اعتاشوا بالنصب على السوريين العائدين من الخارج.

بالفعل، من زار سوريا قبل الثورة وتجلو فيها "كسائح" لا يفهم سبب ثورة السوريين!

فالظاهر كانت توحّي بوجود حد أدنى من دولة القانون والمطاعم والمنتزهات كانت، وما زال الكثير منها حتى اليوم في دمشق، ممتلئة بالزائرين، ولا ننسى "طاولات" المطاعم الحافلة بما لذ و طاب.

في تلك الأيام، كان اللبنانيون والأردنيون يأتون لسوريا بحثاً عن بضائع رخيصة وجيدة، وكان الأوروبيون يتقدّرون لزيارة عاصمة الأميين والتقطّ الصور في حارات دمشق وحلب العتيقة.

ثم نشبّت الثورة وفي غضون أيام استحالّت مدن سوريا، باستثناء حواضر الساحل، إلى ثكنات عسكرية تعج بالحواجز وال قناصة قبل أن تنزل الدبابات إلى الشوارع وتليها الهيليكوبترات والبراميل، ثم "الكيماوي" والمجازر المتنقلة، وقبل أن تتحول الأكثريّة الساحقة من مدن سورية السنّية إلى ركام.

ما الذي حصل كي تحول "الجنة" السورية إلى الجحيم الذي يعيشه السوريون يومياً؟

كيف تحولت سوريا من بلد "يستورد" الخدمات والعمال إلى بلد "يصدر" اللاجئين حتى إلى "بنغلادش" التي تطردهم؟

مقوله "كنا عايشين..." تذكرني بنكتة فرنسيّة مؤداها أن رجلاً ألقى نفسه من قمة ناطحة سحاب، وأنثاء سقوطه أرسل رسالة نصية لأصدقائه مضمونها هو التالي: "حالياً، أمر قرب الطابق العاشر وكل شيء على ما يرام... حتى هذه

من نافل القول التذكير أن أصدقاء الرجل قد وصلتهم الرسالة حين كان صاحبنا قد ارتطم بالأرض وودع دنيانا الفانية إلى غير رجعة!

من وجهة نظر حرفية، فقد كان الرجل صادقاً، فقبل ارتطامه بالأرض بثوان، “كان كل شيء على ما يرام”， وهكذا كان حال السوريين حتى صدمة آذار 2011، حين أعاد السوريون اكتشاف الطبيعة الدموية والإجرامية للنظام الاستعماري، الذي ظنوا أنه قد “تحضر” بعض الشيء، وصدق فيما كسوريين المثل القائل أن “كلباً قد خلف جروًا فكان أكثر نجاسة من أبيه...”.

صحيح، “كنا عايشين” مثل الفرنسي الساقط من قمة ناطحة سحاب، ولحظة الحقيقة أنت حين كتب أطفال “درعا” عبارتهم المشهورة “جاك الدور ياركتور”.

قبل الثورة، كان كل السوريين الوعيين بالطبيعة العميقه لنظام يدركون أن لحظة الحقيقة آتية لا محالة، وأن حمام الدم لن يوفر أحداً. كل المؤشرات كانت تدل على أن الانفجار قادم لكن أحداً لم يكن يعرف كيف ومتى وقلائل هم من توقعوا أن يصل النظام والعالم “المتحضر” إلى هذه الدرجة من السفاله.

العقلاء، حتى من قلب النظام، كانوا مدركين لحقيقة أن البلد تتجه لكارثة، بثورة أو دون ثورة. يكفي النظر إلى انهيار الناتج المحلي، وتردي مستوى التعليم والخدمات كافة، والفساد وسيادة مفاهيم النهب والسطو، والأفق المسدود لمئتي ألف سوري يبلغون سن الرشد كل عام وأغلبهم لا يملك لا التعليم المناسب ولا فرص العمل ولا حتى ما يسد رمقهم.

“النخب” الراقية في المدن الكبرى لم تبال يوماً بمصير هؤلاء، النخب كانت “تعيش” في حين كان الباقيون يموتون ببطء من الفقر والجهل والمرض واليأس.

هؤلاء الذين كانوا خارج الحياة هم اليوم وقد الثورة السورية ونسفها وأملها الوحيد في مستقبل أفضل للسوريين.

قبل الثورة، كنا “تعيش” في انتظار الموت القادم حتماً، بعدها، “نموت” أملاً في حياة أفضل.

عن بُلْدِي

المصادر: